

العائدات الوقفية وإسهاماتها في المجالات العلمية والثقافية بالجزائر إبان العهد  
العثماني 1830-1516

الباحث: محمدي محمد

جامعة محمد بوضياف المسيلة.

ملخص:

تروم هذه الدراسة التاريخية المتواضعة، محاولة الكشف عن الأدوار العلمية والثقافية، التي نهضت بها العائدات المالية الوقفية، سيما تلك المحصل عليها عبر مختلف الوسائط والممتلكات الوقفية بالجزائر خلال فترة الوجود العثماني، أين ظهرت لنا ملامح هذه الأدوار الإجتماعية بصفة جلية في مجالات كثيرة، نذكر منها الأوجه العديدة من المساعدة للعلماء وطلبة العلم، وكذا لبناء المدارس والمساجد والزوايا، أو إعادة ترميمها وإصلاحها لديمومة الإنتفاع منها، وهذا ما وردت حقيقة وقائعه على لسان شيخ المؤرخين الجزائريين المرحوم "أبو القاسم سعد الله"، قوله في استغلال هذه الأموال الوقفية ووجوه إنفاقها المتعددة؛ ما نصه: "يستعمل الوقف في أغراض كثيرة، منها العناية بالعلم والعلماء...أو العناية بالمساجد والزوايا والأضرحة..."، ومن هذا المنطلق إرتأت دراستنا هذه، تسليط الضوء على أهم الأدوار العلمية والثقافية، التي صرفت ووجهت لأجلها عائدات الأموال الوقفية المختلفة في المجتمع الجزائري إبان الفترة العثمانية 1830-1516.

الكلمات المفتاحية: الوقف، العلم، الثقافة، الجزائر، العهد العثماني.

مقدمة:

كغيرها من البلدان العربية والإسلامية الخاضعة للحكم العثماني(حمايةً أو إلحاقاً)، شهدت الجزائر إنتشاراً واسعاً لمظاهر الحياة الدينية والإسلامية في أرجائها وبين مدنها وفيافها، بحيث غلب واقع الممارسة العقائدية للشريعة الإسلامية المحمدية في حياة الجزائريين ويومياتهم، وخاصة ما تعلق منها بالحياة الإجتماعية

والثقافية في المجتمع، والتي أضحت تعبر وبوضوح عن ذلك الإتصال المباشر للأهالي الجزائريين بعقيدتهم الدينية الإسلامية، ولا أدل على هذه العناية والإهتمام من تلك الصور الحية، لأوجه الإزدهار العلمي والثقافي الذي شهدته البلاد في هذه الفترة المذكورة آنفاً، بالرغم من كل المحاولات التعتيمة التي شنتها الدعاية الإستعمارية فيما بعد، حول "تقهقر" الواقع الثقافي بالجزائر خلال الحقبة العثمانية من وجهة النظر الفرنسية.

وانطلاقاً من هذه الأهمية؛ فقد خصتها الفئات الشعبية بحظوة واهتمام كبيرين، إذ ساهم هؤلاء السكان من الجزائريين، بإفراد هذا الجانب الروحي والثقافي بجزء هام من عائداتها الوقفية المختلفة، وهي التي كانت توجه في أحيان كثيرة للنهوض بأوضاع طلبة العلم والتلاميذ من مريدي المؤسسات الدينية المختلفة في الجزائر، كما كان جزء كبير من عائدات هذه الأوقاف أيضاً، يوجه لصالح عمليات البناء والترميم لفائدة المؤسسات العلمية والدينية، ومن هذا المنطلق والمكانة الهامتين اللتين حازتهما الأدوار العلمية والثقافية في الجزائر العثمانية، فقد استهدفت دراستنا هذه؛ تجلية الغموض الحاصل حول هذه المسألة المحورية والحساسة في المجالين التعليمي والثقافي للجزائر خلال الفترة العثمانية، وهو الأمر الذي جعل من السلطات الفرنسية تستهدف القضاء على مصادر هذا المدد الوقفي، وتجفيف المنابع والمصادر المالية لهذه الفئات من طلبة العلم، واتهام الجزائريين بالمقابل بالجهل والأمية وقلة المتعلمين فيها، وقد كانت دراستنا لهذه القضية وفقاً للعناصر الآتي ذكرها:

1- ماهية الوقف.

2- الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني.

3- إسهام الإيرادات الوقفية في الحياة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني.

## 1- ماهية الوقف:

### أ-التعريف اللغوي:

الوقف في اللغة مشتق من المصدر "وَقَفَ"، بفتح الواو وسكون القاف، ويأتي بمعنى الحبس والتسبيل والمنع، فيقال وقف الشيء إذا حبسه ومنعه، ووقف الدابة إذا حبسها ومنعها من السير، ويقال أيضا وقفت الأرض، أقفها وقفاً<sup>1</sup>. كما نجد أن كلمة "الوقف" في معناها اللغوي، تعبر عن العديد من الدلالات اللغوية والمعنوية في آن واحد؛ فنذكر:

✓ مكوث الأصل: نقلاً عن الدراسات التاريخية، وحسب ما قيل عن ابن فارس: "الواو والقاف والفاء أصل واحد، يدل على تمكث في شيء ثم يقاس عليه".  
✓ الحبس والتسبيل: ورد في قاموس لسان العرب مانصه: "وقفت الدابة وقفاً، أي حبستها في سبيل الله، والحبس هنا هو المنع ويدل على التأييد، فيقال فلان وقف أرضه وقفاً مؤبداً، أي أنها لاتباع ولاتوهب ولاتورث.  
✓ الإمساك: وفي هذا يقال "وقف الدار على المساكين" إذا حبسها، والحبس هنا هو المنع والإمساك، وهو عكس التخليّة والحبس من النخيل هو الموقوف في سبيل الله<sup>2</sup>.

### ب-التعريف الإصطلاحي:

أما بالنسبة لمفهوم "الوقف" في المعنى الإصطلاحي، فنجد أن معناه لدى فقهاء الشريعة الإسلامية في المرحلة الأولى لظهور الإسلام وبداية انتشاره- صدر الإسلام-، لايكاد يختلف كثيراً عن معناه في الفترة الحديثة والمعاصرة، ولا أدل على معناه الحقيقي قديماً وحديثاً، مما ذكره لنا المؤرخ المرحوم "أبو القاسم سعد الله" في

<sup>1</sup>-فرج الله أحلام، حمادي موارد: الدور التنموي لمؤسسات الوقف في الجزائر، مجلة الإمتياز لبحوث الإقتصاد والإدارة، ع03، م02، الجزائر، جوان 2018، ص146.

<sup>2</sup>-حبوسة أبوبكر، لحرر كمال: دور الوقف في دعم المؤسسات الخيرية بالجزائر، مجلة الإجتهد للدراسات القانونية والإقتصادية، ع04، م07، الجزائر، 2018، ص503.

موسوعته التاريخية الشهيرة "تاريخ الجزائر الثقافي"، وهو الذي بين لنا المعنى الحقيقي للوقف؛ في قوله: "الوقف أو الحبس هو نظام إسلامي، له أهمية اجتماعية واقتصادية وعلمية كبيرة في المجتمع، وقد استحدث من قبل المسلمين لتوفير المال والسكن، وتقديم المساعدات للعلماء والطلبة والفقراء والغرباء والأسرى واللاجئين، وصيانة المؤسسات التي أنشئت لهذا الغرض، كالماء والطرق والمساجد والزوايا والقباب..."<sup>1</sup>، ويضيف المرحوم حول الأهمية الاجتماعية والثقافية للوقف في المجتمعات الإسلامية قوله: "ويرمز هذا النظام-الوقف-؛ الى التكافل الإجتماعي والتضامن بين المسلمين، غنيم وفقيرهم، كما كان الوقف أيضا المصدر الأساسي لنشر التعليم والمحافظة على الدين..."<sup>2</sup>.

#### ج-أنواع الوقف:

وبعد الدراسة والتنقيب تبين لنا أن الوقف ينقسم الى العديد من الأصناف والأنواع المتباينة والمختلفة، وذلك وفقا للعديد من المتغيرات التي تتعلق بأحد الأركان الأساسية التي تقوم عليها عملية الوقف، إما من جهة الواقف، أو من جهة الموقوف عليه أو حتى من جهة وجه الإستفادة من هذا الوقف، ومن هذا المنطلق فقد أمكننا تقسيم الوقف في الجزائر الى العديد من الأنواع والأصناف، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الوقف الخيري (يتعلق بالجهة الموقوف لها): هو أن يحبس المالك ملكه على جهة خيرية.

<sup>1</sup>-سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج05، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ص 152.

<sup>2</sup>-سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه، ص152

- الوقف الأهلي أو الذري: هو أن يحبس المالك ملكه على واحد أو أكثر من أقربائه<sup>1</sup>.
- الوقف الخاص (يتعلق بالواقف): منها أوقاف الشيخ الثعالبي، أوقاف الجامع الكبير، أوقاف مختلف المساجد والزوايا والقباب....
- الأوقاف العامة (تتعلق بالجهة الموقف لها): أوقاف بيت المال، أوقاف العيون، أوقاف الطرقات، أوقاف الأندلس، أوقاف الأشراف، أوقاف مكة والمدينة، أوقاف سبل الخيرات...<sup>2</sup>.

## 2-الوقف في الجزائر إبان العهد العثماني:

على إعتبار أن الجزائر في العهد العثماني، تعتبر إيالة من الولايات التابعة للخلافة العثمانية والإسلامية<sup>3</sup> الكائن مقرها بالعاصمة التركية اسطنبول<sup>4</sup>، فضلا على أن الإسلام قد وصل إليها منذ القرن الأول للهجرة<sup>5</sup>، فإن الجزائر لم تكن بمنأى عن ذلك الانتشار الواسع لملامح وصور وأشكال الممارسة الدينية في هذه البلاد، ومظهرها من المظاهر التي ميزت الحضارة العربية الإسلامية عن غيرها من الأمم الأخرى، نجد "ظاهرة الوقف" هذا الذي يعتبر معيارا حقيقيا للوقوف على مدى تشرب الإنسان

<sup>1</sup>-عليوان اسعيد: أوقاف الجزائر في العهد العثماني ومساهمتها الثقافية والإجتماعية، مجلة الإحياء، ع11، الجزائر، ص 296.

<sup>2</sup>-سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص153.

<sup>3</sup>-قنان جمال: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، وزارة المجاهدين، الجزائر، 1987، ص52.

<sup>4</sup>- الميلي مبارك بن محمد الهلالي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج03، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، دت، ص44.

<sup>5</sup>-بلاسي أحمد نبيل: الإتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1990، ص06.

للعقيدة الإسلامية القويمة، المستمدة تعاليمها ومبادئها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وللتدليل على هذه الأهمية؛ التي حظيت بها الممتلكات الوقفية في الجزائر خلال الفترة العثمانية، فيمكننا الإشارة الى الإهتمام البالغ الذي أولاه الحكام العثمانيون المتعاقبون على حكم إيالة الجزائر، بهذا الجانب الهام من الحياة الروحية للجزائريين والعثمانيين على حد سواء، وذلك بالرغم من التباين المذهبي بين الشعبين الى مذهب مالكي وآخر حنفي،<sup>1</sup> وانطلاقا من هذه الإلتفاتة التي شكلتها المرجعية الدينية للسلطين العثمانيين وحكامهم في الولايات التابعة للدولة، فقد كان للوقف انتشاراً كبيراً في الحياة الدينية والإجتماعية لأهالي هذه البلاد، حيث عمت هذه الأخيرة أغلب المدن الجزائرية حينذاك.

كما شهد الوقف أيضاً، مزيدا من التنظيم في الإجراءات، والتطور في الهياكل والمؤسسات، هذه الأخيرة التي كانت تعنى بعدد المهام المتعلقة بالعملية الوقفية واجراءاتها التنظيمية في البلاد، فبالنظر الى الأرقام الكبيرة التي بلغتها الممتلكات الوقفية في الجزائر خلال الفترة العثمانية.

فإننا نجد أن هذه العائدات الوقفية، قد مست العديد من مجالات الحياة العامة في المجتمع الجزائري، ومثال ذلك أن من بين المجالات التي استفادت من العائدات الوقفية نذكر: المجالات الإدارية، الإقتصادية، الإجتماعية، وحتى المجالات الثقافية والعلمية... في هذه الجزائر خلال الفترة العثمانية.<sup>2</sup>

وفي ذلك طبعاً، إقتداء واضح بالمسلمين الأوائل في الدولة الإسلامية، الذين شهدت الأوقاف في هذه الفترات تطورا وتزيادا ملحوظا في عدد المؤسسات الوقفية وممتلكاتها المادية والعينية عبر مختلف المراحل التاريخية للدولة الإسلامية، ولا أدل

<sup>1</sup>-بوحوش عمار: التاريخ الساسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1997، ص71.

<sup>2</sup>-بوسف أمير: الوقف وإدارة الحضريية بمدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر ميلادي (المساجد أنموذجاً)، مجلة قضايا تاريخية، ع09، الجزائر، جوان 2018، ص123.

على هذا التطور من القفزة النوعية التي شهدتها العائدات الوقفية في عهد الخليفة العباسي "المأمون"، الذي بلغت الممتلكات الوقفية في فترة حكمه أكبر مستوياتها في تاريخ الدولة الإسلامية بأسرها، الأمر الذي جعل من هذه الأوقاف مصدراً للإنفاق على العلماء والمتعلمين والمساجد والفقراء والمحتاجين، حتى أصبحت المؤسسة الوقفية في هذه المرحلة مؤسسة رعاية اجتماعية ودينية.<sup>1</sup> وهو ما حاول سلاطين آل عثمان إحياء أمجاده في دولتهم،<sup>2</sup> خلال مرحلة الإشعاع الحضاري والسياسي للدولة العثمانية، والتي تعتبر الجزائر واحدة من أهم إيلاتها في منطقة المغرب العربي.

3-إسهام الإيرادات الوقفية في الحياة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني.

يكتسي الوقف في العالم الإسلامي مكانة مميزة، بل ومرموقة لدى عامة المسلمين وخاصتهم، لما له من أهمية في المجالات الاجتماعية والإقتصادية والعلمية الثقافية للدولة الإسلامية، وما من شك في أن هذه الأهمية نتيجة طبيعية للحظوة التي خصت بها العملية الوقفية في الشريعة الإسلامية، وذلك بالإستناد الى آيات كثيرة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾.<sup>3</sup> والعديد من الآيات القرآنية الموافقة لمعنى التصديق والإنفاق في سبيل الله، وهي التي أثبتت من خلالها للإنسانية مدى الفضل والزداد

<sup>1</sup>-عليوان اسعيد: المرجع السابق، ص-ص، 297-298.

<sup>2</sup>-تذكر لنا الكتابات التاريخية أن الدولة العثمانية، كانت من الدول السباقة لتشجيع عملية الوقف، كما سعت الى تنظيمها وتقنينها، بإستحداث أجهزة ومؤسسات تنظم هذه الأخيرة وتضبطها، وهو ما جعل العديد من السلاطين العثمانيين يولونها الحيز الكبير من الأهمية، على اعتبار أن هذه الأخيرة تعتبر مصدراً ماليا واقتصاديا هاما في حسابات الدولة، بحيث يغطي العديد من احتياجات الدولة ومتطلباتها الإقتصادية والاجتماعية، وقد شهد الوقف تشجيعا كبيرا من سلاطين الدولة العثمانية وعلى رأسهم السلطان "بايزيد" المعروف بلقب "التقي": ينظر، حميدي أبوبكر: مصير الأوقاف الجزائرية في ظل الإحتلال الفرنسي أثناء القرن التاسع عشر، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع20، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، الجزائر، أفريل 2018، ص140.

<sup>3</sup>-سورة البقرة: الآية 267.

الأخروي، الذي يحصل عليه الإنسان في مقابل انفاقه للمال والتصدق به على الفقراء والمساكين، وهو ما لا يخرج عن الإطار الشمولي لعملية الوقف أو الصدقة الجارية في سبيل الله.

فالوقف بعائداته المختلفة إذًا، يعد أحد أهم الموارد المالية في الجزائر خلال الفترة العثمانية، ولعل ذلك ما كان دافعاً وجمهاً للحكام العثمانيين المعنيين بالزمام السلطوية في الجزائر، يولونه المكانة الرئيسية والحظوة في مخططاتهم السياسية والإقتصادية وحتى الثقافية لدى الكثير منهم، من خلال جعل هذه السنة ذات الحضور الكبير في المجتمع الإسلامي تخضع لنظام داخلي صارم، من مثل تعيين الوكيل (الزويه، العالم) لمراقبة العملية الوقفية والسهر على بلوغها مواطنها الصحيحة<sup>1</sup>، بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك لتنظيم عملية الوقف، حينما جعل للوقف كغيره من الأمور الشرعية شروطاً أساسية منها: الصيغة القضائية الملزمة، وذلك بحضور القاضي والواقف والشهود، وتحديد قيمة الوقف وأغراضه وكيفية الإستفادة منه... مع ذكر التاريخ وتوقيع الشهود والقاضي، وكلها شروط ملزمة للعقد الوقفي وأساسية لقبوله كعقد شرعي صحيح وملزم لكافة أطرافه<sup>2</sup>، ولما كانت هذه العائدات الوقفية موجهة الى مضاربه الحقيقية، فقد ساهمت في الرفع من المستوى العلمي والثقافي لأبناء البلاد في شتى الأقطار الإسلامية.

وبما أن التعليم في الجزائر خلال الفترة العثمانية كان شأنًا مجتمعيًا، لا علاقة للسلطة الحكومية في البلاد به من قريب أو بعيد، فقد خصصت لهذا المجال أوقاف خاصة تدعى أوقاف المساجد والزوايا والمدارس، ومن المهام الرئيسية لهذه الأخيرة تمويل وتمويل مختلف المؤسسات التعليمية في البلاد، وهو ما كان مدعاة للمساهمة من قبل جميع السكان الجزائريين في هذه العمليات الوقفية والتضامنية التي تساهم في الدفع بوتيرة المستوى العلمي والثقافي في البلاد، وكدليل على اهتمام الحكام

<sup>1</sup>- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج01، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ص229.

<sup>2</sup>- سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه، ص227.

العثمانيين بالوقف باعتباره عاملا مهما في الدفع بوتيرة المستوى العلمي والثقافي، فقد ذكرت لنا الكتابات التاريخية أن الباي "محمد بن عثمان الفاتح"، كان من بين الحكام الأتراك الأكثر اهتماما بالوقف لإسهاماته الكبيرة في الحياة العلمية والثقافية، ولا أدل على ذلك من المدارس التي أنشئها والأوقاف التي أوقفها عليها والمكتبات التي عمرها بأنفس الكتب المتعددة العلوم.<sup>1</sup>

ومن بين الحقائق التي أثبتت للدارسين والباحثين حول الجزائر في الفترة العثمانية، ذلك المستوى الكبير الذي بلغته المؤسسة الوقفية الإسلامية بصفة خاصة، ما ذكره المؤرخ الإسباني (هايدو Haedo) حول المساجد في مدينة الجزائر من حيث أعدادها والفنون التي استخدمت في بنائها وزخرفتها، الذي قال بشأنها: "إنه وفي أواخر القرن السادس عشر، كان يوجد بمدينة الجزائر وحدها مائة مسجد (كبير وصغير) يسير من قبل المرابطين"، وقد علل ذلك بكثرة الأوقاف المخصصة من قبل الجزائريين لهذه المؤسسات، التي تحتل لديهم مكانة روحية ودينية كبيرة.<sup>2</sup>

كما ذكر الكاتب (دوفول Devoulx) أنه ومع نهاية الحكم العثماني، قد وجد بمدينة الجزائر مايفوق 166 مؤسسة دينية، موزعة كالآتي: 13 مسجد كبير، 109 مسجد صغير، 32 ضريح، 12 زاوية، ومن خلال هذه الأرقام المرتفعة لأعداد هذه المؤسسات في الفترة المعنية، يتضح لنا ذلك الإهتمام الكبير بالمؤسسات الدينية، التي كانت تعبر عن اهتمام شعبي كبير من خلال النسب العالية للعائدات الوقفية المخصصة لهذه المؤسسات الدينية، وهو ما يفسر المستوى التعليمي بالجزائر خلال الفترة المذكورة.<sup>3</sup>

ومما يثبت أيضا أن للوقف أهمية كبيرة في الحياة العلمية والثقافية، هي الشكوى التي تقدم بها "الورتلاني" حول إهمال الوقف في مدينة قسنطينة وعلاقته

<sup>1</sup>-عليوان اسعيد: المرجع السابق، ص304.

<sup>2</sup>-بوسف أمير: المرجع السابق، ص124.

<sup>3</sup>-بوسف أمير: المرجع نفسه، ص124.

المباشرة، بتدهور الأوضاع العلمية والثقافية فيها، وهو الذي كرر شكواه على نفس القضية في مدينة بسكرة، حتى أنه في هذه المرة قد صوب سهام الإتهام للحكام العثمانيين. واتهمهم بكل صراحة بالتدخل والتصرف فيما هو ليس لهم من أموال الأوقاف المختلفة، وذلك في قوله: "إن الترك قد استولوا فيما على الأوقاف-يقصد مدينة بسكرة-. فأصبحوا ينتفعون منها ويأكلون كالأمالك الحقيقية، وهي ليست لهم وليسوا من أهلها، ولكنهم تمردوا وطفوا وجعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلماً، وهذا سبب اندراس العلم وأهله من كل وطن يوجد فيه ذلك".<sup>1</sup> وبالنقل على المؤرخ المرحوم أبو القاسم سعد الله، أثبت لنا هذا الأخير أن قد نقل عن أحمد الزهار، حول التجاوزات التي اقترفها الحكام الأتراك ضد الممتلكات الوقفية، في قوله: "لقد جار الأتراك، وأخذوا جميع ديار الحرمين التي كانت بيد الفقراء وأخرجوهم منها".

#### خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة نستنتج أن: العائدات المالية الوقفية في الجزائر خلال العهد العثماني، قد كان لها إسهام كبير في شتى المجالات المختلفة للحياة كالإدارة والسياسية والإقتصاد...، كما كان لها الأثر الهام في النهوض بالأوضاع العلمية والثقافية للجزائريين، من خلال الأوجه العلمية العديدة التي كانت تصرف فيها العائدات الوقفية مختلفة الأشكال والأنواع. فمن التكفل بأجور المعلمين الى إيواء المتعلمين وإطعامهم، الى صيانة المؤسسات الدينية والتعليمية ذات الصلة بالعلم والعلماء، كالمساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب، كل هذه الجهود المبذولة من قبل الجزائريين وبعض من الحكام العثمانيين المخلصين في الجزائر، كان لها الأثر الجلي في ذلك الرقي العلمي والثقافي خلال الفترة العثمانية، وهو ما حاول الإستعمار الفرنسي في مراحل لاحقة القضاء على معالمه ومصادره ومسببات تطوره وازدهاره.

<sup>1</sup>- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي...، ج01، المرجع السابق، ص228